

ملحمة «ثورة الجحيم» في شعر جميل صدقى الزهاوى

صمد سليمانى*
رحمت الله حيدرى منشى**
حسن بهادرى***

تاريخ الوصول: ۱۳۹۰/۱۰/۶ هـ ش
تاريخ القبول: ۱۳۹۰/۱۱/۱۸ هـ ش

الملخص

تعتبر الملحمة من أقدم الأنواع الشعرية عند الأمم القديمة، ومن أغنى الآداب العالمية. و كما نعلم إن الأدب العربى المعاصر من أغنى الآداب فى فن الملحمة، وأشهرها؛ وكثير من الأدباء المعاصرين ومنهم الشعراء اهتموا بالشعر الملحمى. يعتبر جميل صدقى الزهاوى أحد أكبر شعراء الشعر الملحمى، ومن أشهر الشعراء المعاصرين. إن لدراسة الشعر الملحمى الذى هو من أروع فنون الأدب، و أغناها، و أقدمها أهمية كبيرة. و حيث ندرس الشعر الملحمى، نرى فيه قصة البطولات و الأساطير.

لدراسة الملحمة فى ديوان جميل صدقى الزهاوى أهمية كبيرة. و ملحمة "ثورة الجحيم" من أحسن الملاحم الشعرية فى الأدب العربى المعاصر لأنها ملحمة تتناول المسائل الأدبية، و التاريخية، و الدينية، و السياسية، و الأخلاقية، و الأساطيرية فى المجتمع. و يجعل أمام القارى و السامع قدوة أساطيرية، و بطلا خياليا، أو واقيا. و هى ملحمة لم يهتموا بها، و من هذا المنطلق يتصدى هذا المقال لدراستها.

الكلمات الدلالية: الملحمة، الشعر الملحمى، ثورة جهنمية، أساطير الجحيم، الدين، جميل صدقى الزهاوى.

*. خريج جامعة تربيت معلم فى طهران، إيران.

** خريج جامعة تربيت معلم فى طهران، إيران.

*** خريج جامعة تربيت معلم فى سبزوار، إيران.

المقدمة

تعد الملحمة من أقدم الأنواع الشعرية وأعرفها منذ أقدم العصور عند الأمم القديمة. وهي شعر تاريخ البطولات الأسطورية والحربية عند الأمم. لأن الشعوب البدائية عاشت في جو مسحور، ولا بد أن تكون للملحمة صدى في تاريخ أمة، أو أثرا في حياة شعب. يظهر مما وصل إلينا من الشعر الملحمي، أنه أقدم الشعر الذي ثبت تدوينه قبل غيره.

والملحمة عبارة من قصة شعرية بطولية قومية تقوم على خوارق العادات و الأمور. و تخلط فيها الحقائق بالأساطير، وتغلل القصائد الدينية و الروحية في جوانبها. فالملحمة تمثل الجوانب القومية، بما تحويه من عناصر هامة في حياة الشعوب، من حيث الجوانب الدينية، والفكرية، والاجتماعية؛ كما تمثل الأنظمة السياسية، و الاقتصادية، و الحربية. و ما تحويه من تصوير الجهاد القوى للشعب، و إبراز العناصر البطولية لدى زعمائه.

إن قيمة الملحمة الشعرية، تحرك التاريخ في الوجدان الشعبي الأدبي من خلال الفكرة التي يستحبه الشاعر من قضايا التاريخ، ليوظفها في حركة المستقبل في عملية توعية و رصد و إثارة، ليربط المستقبل بالماضي على أساس الفكرة و الشعور و الهدف الكبير. و من الطبيعي أن قيمة أية ملحمة تتحد من خلال الموضوع الذي تدور الملحمة حوله.

حيث ندرس الشعر الملحمي، حقيقة نرى فيها الشعر وقصه البطولات وهنا كانا من أغنى فنون الأدب في تاريخ البشر كله من البداية حتى الآن. إن دراسة ملحمة الزهاوى دراسة شاملة في الواقع ستكشف آفاقا جديدا. يقول أمين الريحاني: «... و تستحق أن تخصص لها الدراسات، فليس من السهل أو العدل استعراض كافة جوانبها في عمل غير مستقل...» (مسوح، ٢٠٠٩م: ١٣)

يهدف هذا المقال إلى ١. تحديد مفهوم الملحمة الشعرية. ٢. نظرة في الأدب العربي في عصور الجاهلي والعباسي. ٣. خلفية الشعر الملحمي في الأدب العربي المعاصر. ٤. و عرض تصوير واضح للشعر الملحمي "ثورة جهنمية" للزهاوى دراسة و شرح و تحليل.



ما هي الملحمة؟

الملحمة: «القصصية الطويلة التي تحكى أعمال البطولة لبطل رئيس واحد وكثيراً ما يكون لها مغزى قومي واضح، بينما تستخدم كلمة ملحمة للإشارة إلى ما هو بطولي، وقد يتجاوز قدرات البشر، ويجمع الروعة، والعظمة، والجلال.» (ترحينى، ١٩٩٥م: ٢٢٣) «ويحتوى على أفعال عجيبة، وحوادث خارقة للعادة، ومن أهم عناصرها الوصف مع الحوار وصور الشخصيات والخطب وعنصر الحكاية. وهو العنصر الأهم فيه، مع الاستطراد والعناية بالحوادث العارضة. بما تفترق الملحمة فيه عن القصة والمسرحية افتراقاً كبيراً، وهذا الشعر يقص أنباء المعارك والبطولات والأبطال، على نحو ساذج، خال من التعقيدات العقلية والفنية.» (خفاجى، ١٩٩٢م: ٤٧٦) ويلعب الخيال فيها دوراً كبيراً. «أعمال البطولة لبطل رئيس واحد وكثيراً ما يكون لها مغزى قومي واضح.» (المصدر نفسه: ٢٠)

«فكل قصيدة تقص قصة يكون الغرض الظاهر منها حكاية، هذه القصة تسمى شعراً قصصياً، فإذا كانت القصيدة أو القصائد القصصية تناول الرجال المشهورين والأعمال المشهورة في التاريخ فتلك ملحمة. أما الشاعر القصصى قديطوف بحياته حادث من الحوادث تنفعل به نفسه، وتتجاوز له مشاعره، ويهتز إحساسه فيعمد إلى تصوير هذا الحادث كما تمثل لديه فى قصة، نسج خيوطها ويرسم ألوانها ويطرز حوايشها.» (خفاجى، ١٩٩٢م: ٩٠)

«الشعر المحلمى بطبيعته شعر جماعى، يصور عادات العشوب ومعتقداتها وأسطيرها وألهتها. كما سجل حياتها مما حفز إلى حفظه وروايته وتناقله كمرآة الماضى للشعوب التى تعى ما فيها، وتحرض عليه وتعترز به فى مواجهة الشعر.» (بوملحم، ١٩٧٠م: ٢٨) «وفى الملاحم، يتغنى الشعب بأماله ومثله العليا، عرضاً لعقائده ونزعاته.» (غنيمي هلال، لاتا: ١٤٦)

الملاحم فى العالم

ازدهرت الملحمة فى العصور البدائية للأمم، حيث يغلب الخيال، وتكثر الأساطير، و تزدوج الحكايات و التاريخ.و من أهم الملاحم القديمة فى الأدب العالمى:
١. «الإلياذة: فى الأدب اليونانى القديم ملحمة شعرية، نظمها هوميروس،



- وموضوع الإلياذة. غضب أخيلئوس لما لحقه من إهانته على يدي "أجاممنون" القائد العالم اليوناني في حصارهم طرواده. «خفاجي، ١٩٩٢م: ٤٧٧»
٢. «الايوساد: وهي الملحمة الثانية لهوميروس وموضوعها عودة "أودسيوس هوديوليس" من حرب طرواده بعد انتهائها بعشر سنين.» (المصدر نفسه: ٤٧٧)
٣. «الاياذة: نظمها الشاعر اللاتيني فرجيل (٨٩-١٩ ق.م)، وقد نظمها في أواخر حياته ... و الملحمة، ملحمة وطنية فيها إشاده بأصل الإمبراطورية الرومانية.» (المصدر نفسه: ٤٧٧-٤٧٨)
٤. الكوميديا الإلهية لدانتى: (٣٣١م) وهي دوّن في مائة نشيد في وصف الحجيم والمطهر والجنة في ثلاث مجلدات. «(المصدر نفسه: ٤٧٨)
٥. «رسالة الغفران: كتبها أبوالعلاء المعرى (٣٦٣ - ٤٤٩ق) في نهاية الربع الأول من القرن الخامس الهجرى، وهي رد على رسالة بعث بها ابن القارح إليه وفيها نجد أبا العلاء يطوف بمصاحبه في أرجاء العالم الآخر، في رحله خيالية ممتعة.» (عبدالرحمان، ١٩٩٨م: ٢٣١)
٦. «الفردوس المفقود: لملتون (١٦٠٨-١٦٧٤م) وقد نشرت عام ١٦٦٧م في ١٢ نشيدا، وتصور خروج آدم من الجنة، بعد إغراء الشيطان له. لهذه الملحمة طابع ديني.» (خفاجي، ١٩٩٢م: ٤٧٨)
٧. «ملحمة المهابارتا الهندية: في مائتى ألف بيت، نظمها قياصة أحد كهان الهنود في الحروب بين شعوب الهند.» (المصدر نفسه: ٤٧٩)
٨. «وقد وجد عند الفرس ملحمة طويلة وهي الشاهنامه لفردوسى: تدور حول تاريخ الأكاسرة و وصف الحرب بين أهل إيران و أهل طوران نظمها فردوسى (٣٢٩-٤١١ق).» (المصدر نفسه: ٤٧٩)
٩. «رسالة التوابع والزوابع: لأبى عامر بن شهيد الأندلسى القرطبى (٣٨٢-٤٢٦ق) لقد ظهرت فى صدر القرن الخامس الهجرى. و وصلتنا فصول منها عن طريق كتاب "الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة"، لأبى الحسن على بن بسام (ت ٥٤٢ق) استطاع الشاعر من خلالها طرح آرائه الشعرية و الأدبية و العقلية، رسم من خلال صورة فكهه و نوادره بعضا من ملامح المجتمع الأندلس فى عصره.»
١٠. «جلجامش: هى قصة شعرية طويلة مدونة بالخط المسمارى و اللغة البابلية



و السومرية على اثني عشر رقما أو لوحا من الطين.» (ترحيني، ١٩٩٥م: ٢٣)

الملاحم في الأدب العربي القديم

«لم يعرف الأدب العربي الملاحم بصورتها الفنية هذه، ولكن الأدب الشعبي خلق ملاحم شعبية.» (خفاجي، ١٩٩٢م: ٤٨) «تكاد تجمع الدراسات أن الشرق مهد الإنسان الأول وموئل الحضارة ومهبط الوحي والإلهام و تعتبر ملحمة جلجامش أقدم نموذج في تاريخ الحضارات جميعا.» (ترحيني، ١٩٩٥م: ٢٣) «فالعرب كانوا يجهلون الملحمة كفن شعري مستقل، وقد ظلوا يجهلون بها إلى أن ترجم البستاني (١٨٦٥-١٩٢٥م) هوميروس إلى العربية.» (المصدر نفسه: ٧٠) و بالرغم من ذلك فإن الشعر الجاهلي لم يخل من مظاهر ملحمية، و نرى في الشعر الجاهلي شعر الملحمة عند عمرو بن كلثوم و عنتره بن شداد، ولم يعرف العرب الملحمة المكتملة في العهد الإسلامي الأول ولكن مظاهر ملحمية برزت في شعر الخوارج كشعر قطري بن الفجاءة (٦٩٧م) و في العصر العباسي نرى قصيدة أبي تمام في وصف المعتصم في العمورية و كذلك نجد العنصر الملحمي في قصيدة المتنبي في وصف سيف الدولة.» (نفس المصدر: ٧٠-٧٣)

مطلعها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
(المتنبي، لاتا: ٣٥٢)

خلفية الشعر الملحمي في الأدب العربي المعاصر في العصر الحديث يعتبر سليمان البستاني أول من اهتم بالشعر الملحمي المتكامل، حين ترجم إلياذة هوميروس إلى العربية. و في مقدمة ترجمته تكلم عن الملحمة ... و بعد البستاني قام أحمد محرم (١٨٧٧-١٩٤٥م) بإثراء هذا اللون، فكتب "الإياذة الإسلامية" مستمدا أحداثها من كفاح النبي محمد ﷺ و نضاله في سبيل نشر الدعوة الإسلامية. ثم جاء «بولس سلامة فنظم ملحمتي "عيد الغدير وعيد الرياض"، و اليوم ما زالت جهود المحدثين تتوالى في سبيل إنشاء ملحمة إسلامية. منها الجهود التي يبذلها الشاعر المعاصر سعيد عسيلي



صاحب مولد النور وملاحم الطالبية.» (ترحينى، ١٩٩٥م: ٧٤-٧٥) و كتب فوزى معلوف سنة (١٨٩٩-١٩٢٠م) بساط الريح فى ٢٢٥ بيت، أربعة عشر نشيدا كل فى موضوع.

"ثورة جهنمية" للزهاوى

تتوج أعمال الشاعر و الفيلسوف الحكيم جميل صدقى الزهاوى ملحمة الشعرية الخالدة ثورة أهل الجحيم، ملهاة حوارية، شعرية، فلسفية واجتماعية، ألفها وهو فى بداية العقد السابع سنة ١٩٢٩م، يعرض فيها رؤاه، و فلسفته، و نظراته للحياة، وأدبها، والناس، ومعتقداتهم من خلال سجل زيارته للجحيم، و النعيم على طريقة أبى العلاء المعرى فى "رسالة الغفران" ودانتى فى "الكوميديا الإلهية" و"التوابع والزوابغ" لابن الشهيد الأندلسى.

تقع هذه القصيدة فى ٣٤٥ بيتا نظمها على وزن واحد و قافية واحدة. هذه القصيدة طريفة، فليست هى قصة اجتماعية بحتة. والباحثة عزيزة مريدن عدت هذه القصيدة من القصص الشعرية الاجتماعية الطويلة. (مريدن، ١٩٨٤م: ٥١١) أما بعض الباحثين قد سمى القصة "ملحمة". (أبوسعد، ١٩٥٠م: ٥١) لما نشر الزهاوى هذه القصيدة أن الناقلين رفعوا الأمر إلى الملك فيصل الأول صاح قائلا: «أنا فى القرن الرابع عشر الهجرى، وفى صغرى كانوا يسمونى المجنون و فى شيخوختى يسمونى الفيلسوف و الزنديق.» (فهيمى، لاتا: ٢٢٤)

أما فى القصيدة قال: «يا سيدى الأمير وماذا تخشى من شاعر بلغ من السنين عتيا و حاربتة الأيام وتكاثرت حوله الأعداء، فانفعل انفعال الشعراء، ولكنّه عجز أن يضرم الثورة فى الأرض فاضرمها فى السماء.» (نفس المصدر: ٢٢٤)

الشاعر قسم قصيدته إلى أربعة وعشرين مقطوعة هى:

١. نكير ومنكر فى القبر
٢. حوار بين الملكين والميت
٣. مصارحة الميت
٤. وصف الصراط
٥. السؤال عن الملائكة والشياطين وأجوبة الميت
٦. السفور والحجاب
٧. السؤال عن الله
٨. إلقاء الحجّة
٩. اختلاف فى اسم الله
١٠. امتناع الميت عن الجواب
١١. لا حرية فى القبر
١٢. الثورة على الملكين



١٣. عذاب القبر
 ١٤. الجنة ووصفها
 ١٥. الجحيم ووصفها
 ١٦. الحب في الجحيم
 ١٧. الشعراء في الجحيم وعمر الخيام
 ١٨. سقراط يلقي محاضرة في الجحيم
 ١٩. منصور الحلاج في الجحيم
 ٢٠. الثورة في الجحيم
 ٢١. المعري ينشد نشيد الثورة ويردد له الجمهور
 ٢٢. انتصار أهل الجحيم
 ٢٢. الحرب في الجحيم
 ٢٤. الخاتمة

(سعيد، لاتا: ١٠٧-١٣٣)

تدور أحداث الملحمة بعد انتقال الزهاوى إلى عالم الموت، وهناك في القبر يلتقى ملكى السؤال نكيرا ومنكرا بمنظرهما المهول. ويدور بينهم حوار طويل حول قضايا الدين والاعتقاد فى الدنيا. يظهر الشاعر فيه السخرية والتهكم من هذه المعتقدات. مما يدفع الملكين إلى نقله فى الجحيم ليقاسى العذاب الأليم. وهنا يبدأ قسم آخر يلتقى فيه الشاعر رجال علم، وأدب، وفن، وفكر، وسياسة فى الجحيم، و يحاورهم و يتحدث إليهم ويساهم فى التحريض على الثورة التى تنشب ناراها بين سكان الجحيم و ملائكة العذاب، لتنتهى بانتصار قوى الجحيم على الملائكة و ينتهى معها الحلم.

يبدأ الزهاوى ملحمة بالرحلة الخيالية من عالم الأحياء إلى عالم الأموات، وهناك فى القبر (أول منازل الآخرة) يلتقى الشاعر منكرا ونكيرا، فيصف منظرهما بشئ من المبالغة والتهويل لإظهار هول الوقف. فالقبر ليس فيه ما يونس، وكانا فظين غليظين معه فى المعاملة. ثم يبدان بسؤالهما عن بعض القضايا التى كان يؤمن بها من كان حيا كالإسلام، والتفسير، والتخيير، والشعر، والفن. غير أنّ الشاعر يغرف بالسؤال، إذ يظهر تبرمه من أسئلة الملائكة المتعلقة بالدين وعندما يلحقان عليه بالسؤال يتبرم بهما، ويشكو ويئنّ ثم يفصح عن مذهبه الذى عاش عليه ويتلخّص فى قوله.

غير أنّى أجلّ ربّى من إتـيان ما يأباهُ الحجا والضميرُ

(سعيد، لاتا: ١١١)

وعندما يستفيق الشاعر على حرّ شمس الضحى، وإذا به كان فى حلم آثاره



الجرجير. ويقول:

وتَنبَهت من منامى صباحاً
وإذا الشمس في السماء تنبُرُ
وإذا الأمر ليس في الحق إلا حلماً
أثاره الجرجيرُ
(المصدر نفسه: ١٣٤)

و بهذا تنتهى أمنية، كانت تعيش في خلد الزهاوى يعرض فيها، بكل من يريد من رموز تدعى الدين و التقوى، ذاهبا من رؤيته إلى أبعد أشكال الرمز الشعري حين يدفع بثورة الوساء في دنيا الخيال إلى تحطيم كل أشكال القهر و الحرمان في الأرض. هو الذى يقول عنها فى رده على الملك فيصل «ماذا تخشى من شاعر بلغ من السنين ولكنه أعجز من أن يضرم الثورة فى الأرض فاضرمها فى السماء.» (فهيمى، لاتا: ٢٢٤)

و قد كتب فيه طه حسين: «لم يكن الزهاوى شاعر العربية فحسب. لقد كان أعر العقل.. و كان نعرى هذا العصر.» (مسوح، لاتا: ١٠٧)

كما تلمس موقفه من الحياة الاجتماعية فى عصره ولاسيما قضايا المرأة والتزام النضال فى الحياة الكريمة، و غيرها من القيم الاجتماعية التى بدأت المجتمعات تفقدها فى ظل الحكومات الراضحة تحت الاستعمار.

الدافع من الرحلة الخيالية فى ملحمة الزهاوى

ماذا يريد هذا الرجل؟ وما معنى ثورة أهل الجحيم على السذج من أهل الجنة؟ أيقصد ثورة البائسين على الأغنياء المنعمين، و انتصارهم عليهم؟ أم يصور تصويراً خيالياً ثورة فى السماء؟

لم يكن الشعر بمنأى عن قضايا عصرهم و واقعهم، بل عاشوا فى قضايا المجتمع. و دفعهم ظروفهم السياسية و الاجتماعية إلى التحليق بعيداً، و يركبون أجنحة الخيال فى ظل ظروفهم السياسية و الاجتماعية. فلذا أكبر الظن أنه يقصد المعنى الأول، وهو بذلك تثير الجماهير ضد الأوضاع السياسية. هو يقسم المجتمع إلى فئتين: حاكمة متسلطة غنية، تتجمع فى يديها الأموال والخيرات، وأخرى فقيرة بائسة ليس لها من حظّ الأثقاء، الألم والحسرة.

وهذه الأوضاع قد دفعه إلى دافعه الذى أخرجه عن دنيا الواقع إلى عالم الخيال



لإضرار ثورة البؤساء ويبرز الدافع بوضوح فى الشعر الذى رددته المعرى أثناء قيام الثورة. فيقول:

المعرى:

غصبوا حقكم يا قوم ثوروا إنّ غصب الحقوق ظلم كبير

الجمهور:

غصبوا حقنا ولم ينصفونا إنما نحن للحقوق نشور

إن خضعتم فما لكم من نصيب فى طوال الدهور إلا السعير

(سعيد، ١٩٨٣م: ١٣١)

محاكاة القدماء وإحياء التراث

لم تخل ملحمة الزهاوى من الدوافع التقليدية والسير على نهج الأدباء و القدماء. والدافع الذى يمكن أن يتجلى فيه رغبة الزهاوى فى نظم ملحمة شعرية على نمط رسالة الغفران، ليعرض فيها موقفه من الحياة والموت والحق والباطل والفساد والفضيلة والخير والشر، ولكن من وجهة دينية، قوامها الرؤية الإسلامية الصحيحة. وكما قال الدكتور فايز ترحينى: «ويبدو أن الشعر الملحمى أخذ بداياته الأولى من الأناشيد والتراتيل الدينية.» (ترحينى، ١٩٩٥م: ٤٧)

وأضاف «عالم الملاحم يؤمن بالأساطير والخرافات شرط أن يكون فى أسس الملحمة شعور بالحق والعدالة وإكبار للفضيلة ومحافظة على التقاليد و... عالم الملاحم عالم حرّية فردية.» (المصدر نفسه: ٢١)

التأثر بالأساطير العربية القديمة

الزهاوى إلى جانب اللغة العربية حذق الفارسية و التركية و آدابهما، ترجم رباعيات الخيام نظماً ونثراً إلى العربية. وقرأ الملاحم العربية القديمة مثل ملحمة عنتره و زهير و ملحمة جلجامش التى «تعتبر أقدم أنموذج من أدب الملاحم فى تاريخ الحضارات جميعاً و هى بحق درّة النتاج الأدبى فى حضارة الشرق عموماً و بلاد الرافدين خصوصاً.» (ترحينى، ١٩٩٥م: ٢٣) وقال حنا الفاخورى: «موضوع ملحمة الزهاوى مستقى من الكتب الدينية من أوصاف للجنة والنار، من رسالة



الغفران لأبي العلاء المعري، ثم من الكوميديا الإلهية لدانتى، ومن شتى الروايات الشعبية التي تناقلها الناس في هذا الموضوع.» (الفاخوري، ١٣٨٠ش: ٤٢٩)

«و هكذا استطاع شعراء الملاحم أن يستفيدوا من تراثهم الأسطوري العربي خاصة، وتوظيف هذا التراث في التجربة الشعرية، كما استطاع بعضهم اختراق الأنماط الأسطورية وخلق تجارب شعرية تحمل من ملامحها بعض سمات الفردى والجمعى.»

«الأسطورة كمصطلح تشير أحيانا إلى أقاصيص الأقدمين على اعتبار أنها الجزء القولى المصاحب للطقوس البدائية، أحيانا تشير إلى أشكال الإيمان المختلفة.» (الورقى، ١٩٨٤م: ١٤١)

على أن الذى يعيننا من الأسطورة هنا أنها ليست مجرد نتاج بدائى يرتبط بمراحل ما قبل التاريخ أو بعصور التاريخ القديمة فى حياة الإنسان أو بالمجتمعات الأنثروبولوجية المعاصرة، وإنما هى عامل جوهري و أساسى فى حياة الإنسان فى كل عصر، و فى إطار أرقى الحضارات. (إسماعيل، ١٩٩٨م: ١٤١)

كما نعلم كان الزهاوى عالما باللغات العربية والفارسية وآداب الترك، وقرأ آدابهم، و تأثر فى رؤيته وقرأ أساطيرهم. و ليس بعيدا أن قرأ الأساطير الشرقية القديمة مثل أساطير الهند و الفرس و... .

التأثر بالقرآن الكريم

لم يكن التأثر بالقرآن الكريم باقتباس الآيات فحسب، وإنما أفاد من قصص القرآن الكريم و تصويره. و قد أغنى وصف القرآن الكريم للجنة و النار خيال شعراء الذين استعانوا بأوصافه لرسم صورة الجنة و النار، وفق رؤاهم الفكرية و التفسيرية.

«يهدف (الملحمة) تعظيم شعور جماعى دينى أو وطنى أو إنسانى.» (يعقوب، ١٩٨٧م: ٣٧٤) والعنصر الدينى من أركان الملحمة، فالعلاقة بين الملحمة والدين علاقة وثقى، و الملحمة وليدة التفكير الدينى.» (ترحيني، ١٩٩٥م: ٢٢)

فقد فصل الله تعالى فى صورة النار بما فيها من أهوال و أنكال و عذاب و فى دركاتها و أبوابها. و يقول الله تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْفَى نَزَّاعَةً لِّلشَّوْيِ ﴾ (المعارج: ١٥-١٦) و يقول عزوجل: ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوْ آخَتْ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴾



(المدثر: ٢٧-٣٠) ويقول الله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفئِدَةِ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ﴾ (الهمزة: ٥-٩)

وقد أفاد الزهاوى من أوصاف القرآن الكريم لجحيم حين وصف النار التي نقله إليها الملكان، فوصف ما فيها من طعام الزقوم وشراب اليعقوم وشهيق جهنم وزفيرها. فقال:

إنها فى أعماقها طبقاتٌ
بعضها تحت بعضها محفورٌ
وأشدّ العذاب ما كان فى الها
وية السفلى حيث يطغى السعيرُ
حيث لا ينصر الهضيم أخوه
حيث لا ينجد العشير العشير
ولقد يسقى الظامئون عسيراً
هو من حنظلٍ وساء العصيرُ
ولها من بعد الزفير شهيق
ولها من بعد الشهيق الزفيرُ
ولهم فيها كلُّ يومٍ عذابٌ
ولهم فيها كل يوم ثبورُ
(سعيد، ١٩٨٣م: ١٢٣)

و فى نظرة لبعض الآيات نجد الزهاوى قد استقى معانى القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿إِذَا ألقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وَهِيَ تَفورُ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلِّمَّا ألقى فِيهَا فَوْجٌ سألَهُمْ حَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذيرٌ﴾ (الملك: ٤٣-٤٦)

التأثر بالحديث النبوى الشريف

ويأتى الحديث النبوى الشريف بعد القرآن الكريم أهمية فى إغناء مادّة بعض الأشعار ولاسيما الأشعار التى تتعلق بالدين وأمورها، وتمّ هذا الإغناء إما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. لا شك أنّ الزهاوى قد تأثر بالأحاديث النبوية الشريفة فى أشعاره لأنّه قدنشأ فى أسرة دينية، كان والده مفتى بغداد فيتلقى العلوم الشرعية على يده. وتأثر فيما بعد فى أشعاره. قد أخذ الزهاوى أكثر أوصافه منها فى ثورته الجهنمية من الحديث النبوى الشريف.

ولاسيما فى وصف الجنة، إذ يقول:

جنة عرضها السماوات والأرض
بها من شتى النعيم الكثيرُ
فطعام الأكلين لذيذٌ
شرابٌ للشاربين طهورُ

سمك مقلَى وطير شوى ولذيدٌ من الشواء الطيورُ
ولقد يعطى المرءُ سبعين حورا عليهنّ سندسٌ وحريزُ
(سعيد، ١٩٨٣م: ١٢٠)

ولعلّ نظرة إلى حديث الإسراء والمعراج، تقرب لنا مدى تأثر الزهاوى به.
يقول الحديث: «فأتى على وادٍ فوجد ريحاً طيبة وريح مسك وسمع صوتاً. فقال:
يا جبرئيل، ما هذه الريح الطيبة الباردة. وما هذا المسك، وما هذا الصوت؟ فقال:
هذا صوت الجنة تقول: يا ربّ، آتني بما وعدتني. فقد كثر غرفى، واستبرقى،
وسندسى، وحريرى.»

التأثر بالفلسفة العربية

«والزهاوى رجل النظر الفلسفى إلى الأمور، له من الطاقات الفكرية و التحليلية
ما ليس لغيره من شعراء العصر.» (الفاخورى، ١٣٨٠ش: ٤١٤) «و بسبب إغراقه
فى التأمل و التحليل مال إلى التشاوم وسوء الظن بالدهر و بالناس. وهو تأثر
بفلسفة المعرى. و يظهر شكه بقدرة الدين و يجاهر بريبه فى أسس الاعتقادات
الدينية. ولا يدين إلا بدين العقل، مثل المعرى.» (المصدر نفسه: ٤١٤)
فيقول الزهاوى:

غير أنى ارتابُ فى كل ما قد عجز العقل عنه والتفكير
(سعيد، ١٩٨٣م: ١١٢)

يردّد قول المعرى:

كذب الظن لا إمام سوى العقل مشيراً فى صبحه والمساء
(ضيف، لاتا: ٣٩١)

وأراد الزهاوى أن يعلى شأن فلسفة أبى العلاء المعرى فجعله فى مقدمة
الشعراء المارقين فى جحيمه.
فيقول الزهاوى:

ثمّ حيانى أحمد المتنبى والمعرى الشيخ وهو ضير



وكلا الشاعرين بحر خضم وكلا الشاعرين فحل كبير
(سعيد، ١٩٨٣م: ١٢٦)

وليس شك أن تقديم المعرى فى مقدمة الثائرين يؤكذ على دوره الريادى
الذى تقوم به الفلسفة فى قيادة الثورة.

التأثر بالفلسفة الغربية

«لقد قرأ الزهاوى عن التركية كثيراً من آراء فلاسفة الغرب وعلمائه ثم الكوميديا
الإلهية وديوانى فيكتور هوغو الفيلسفين "الله" و"نهاية الشيطان" ثم قرأ بإعجاب ما
قرأ الفيلسوف التركى "رضا توفيق" عن أدب "عبد الحق حامد" الفيلسوف التركى
الشهير.» و قد ضمن الزهاوى فى ملحمة أسماء بعض هؤلاء الفلاسفة:

ثم إنى سمعت سقراط يلقى طبقة فى الجحيم وهى تفور
وإلى جنبه على النار أفلا طون يصغى كأنه مسرور
وأرسطاطاليس الكبير وقد أعرق منه المشاعر التفكير
والحكيم الكندى ثم ابن سينا وابن رشد وهو الحفى الجسور
(سعيد، ١٩٨٣م: ١٢٧)

الثقافة العلمية

يتحدث الزهاوى عن بعض الحقائق العلمية التى اشتهرت بين علماء الفلك و
الطبيعة «ليس الشعر عنده إذن لسان الجنس البشرى، وإنما هو لسان العلم و خلاصة
لقوانينه ونظر فى مبادئه و فى رقعة السماء التى يستنبط.» (ضيف، ١٩٥١م: ٧٥) هو
قد تأثر بمعطيات العلوم فى عصره حتى غلبت الروح العلمية على شعره.
فيقول:

قلت لله فى السموات والأرض وما بينهما خلق كثير
غير أنى أرتاب فى كل ما قد عجز العقل عنه والتفكير
(سعيد، ١٩٨٣م: ١١٢)



ما لكل الأكوان إلا إله واحد لايزال وهو الأثير
(نفس المصدر: ١١٤)

فالأثير مصطلح علمي فيزيائي أتى في شعره، و نرى في جحيمه معظم
الشخصيات العلمية و الفكرية و الفلسفية في العالم.
ثم كوبرنيك الذى كان قد أفهم أن الأرض جرم يدور:

تتبع الشمس أينما هى سارت وعلیها مثل الفراش تطور
ثم دروین وهو من قال إنا نسل قرد قضت علیه الدهور
(نفس المصدر: ١٢٧)

الدين

«من أركان الملحمة، الأسلوب الملحمى الذى يجب أن يتميز بالقوة والبطولة
الرائعة و هذه يجب أن تشمل جميع النواحي جميع الحربية والاجتماعية و
الدينية و الخلقية.» (ترحينى، ١٩٩٥م: ٢٢) أما «الدين عند الزهاوى خاضع
للعقل، و هو لذلك مجرد من الخرافات، و مجرد من كل ما لايقبله العقل.»
(الفاخورى، ١٣٨٠ش: ٤١٧)

غير أنى أرتاب من كل ما قد عجز العقل والتفكير
لم يكن فى الكتاب من خطأ كلا ولكن قد أخطأ التفسير
(سعيد، ١٩٨٣م: ١١٢)

الله - جلّ جلاله -

اضطرب الزهاوى بين الإيمان والإلحاد:

كان إيمانى فى شبابى جمّا ما به نزره ولا تقصير
غير أن الشكوك هبت ثلاثينى فلم يستقرّ منى الشعور
ثم أمنت ثم أحدث حتى قيل هذا مذذب مغرور
وتعمقت فى العقائد حتى قيل هذا علامة نحريز
ثم إنى فى الوقت هذا لخوفى لست أدرى ماذا اعتقادى الأخير



«هذا هو القلق النفسى الذى رافق الزهاوى. وهو فى كل حال مؤمن بالله تعالى فى قرارة نفسه، ولكنه يريد فى إيمانه أن يستمد بالعقل، لا يقبل منه بديلاً.» (سعيد، ١٩٨٣م: ١٣٤)

الموت (الرحلة الخيالية)

«شغلت الملحمة بموضوع أساسى، هو البرهان بأسلوب مؤثر على حتمية الموت. فهى تتناول مسألة كبرى، شغلت تفكير الإنسان منذ أقدم الأزمان.» (المصدر نفسه: ١٠٦)

يرتبط الموت و الحياة ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة الدينية فالموت طريق موصل إلى ساعة القيامة.
يقول الزهاوى:

بعد أن متّ واحتوانى الحفيرُ جاءنى منكر و نكيرُ
كنت فى رقدة بقبْرِى إلى أن أيقظانى منها وعاد الشعور

الروح والجسد

«ينزع الزهاوى إلى تمجيد العقل و إنكار كل ما عداه. بل اليه يكفر بالروح و يدعو إلى مادية واضحة.» (سعيد، ١٩٨٣م: ١٠٦)

فيقول:

غير أنّى أرتابُ فى كلما قد عجز العقل عنه والتفكير
(المصدر نفسه: ١١٢)

الحوار

أما الحوار فيبدو الديالوج ذات الشكل المسرحى فى ملحمته، و «بلغ الشاعر ذروة الفن فى حوارهِ الشعري.» (مسوح، ٢٠٠٩م: ١٣)

يظهر الحوار فى غالبه مسهلاً فى الحكاية و السرد، و «هو الشاعر المبدع الذى استطاع أن يطوع حوارهِ للشعر و يحين استخدامه فيه حتى طغى الحوار عليها من أولها إلى آخرها حتى غدت قصة حوارية ناجحة تنبض حياة و قوة.» (سعيد، ١٩٨٣م:



١٣٤) حتى عدّت عزيزه مريدن هذه الملحمة قصة شعرية اجتماعية طويلة.

النتيجة

ثورة أهل الجحيم ملحمة الأدب الثورى فى القرن العشرين و من أهم دوافع الزهاوى فى كتابتها الدافع السياسى والاجتماعى، والدوافع الذاتية من أجل الحرية والتقدم الاجتماعى. أسهمت الثقافة الدينية فى إغناء ملحمة الزهاوى بكل عناصرها الأساسية من القرآن الكريم، والحديث، والفلسفة الإسلامية. ونرى بوضوح النصوص القرآنية فى رؤية الزهاوى. ونرى فيها بوضوح الفلسفة العربية القديمة بمادّتها الغنية فى إغناء ملحمة. كفلسفة المعرى ورؤيته عند الزهاوى. أصبحت بعد رسالة الغفران الملحمة الشعرية الفلسفية الوحيدة باللغة العربية. استنادا إلى أدب العرب، ومعتقداتهم بعد رسالة الغفران. و نرى فيها تأثيره بالكمديا الإلهية لدانتى. ثورة أهل الجحيم ملحمة قلبت المفاهيم وقوانين الجنّة والجهنّم رأسا على عقب فيها، وأهل العلم و الفلاسفة كلهم فى جهنّم و فى الختام انتصروا على أهل الجنّة بقيادة الشيطان.

